الإله فيما وراء اللغة



جيل دولوز
ترجمة: أحمد الطريبق

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الإله فيما وراء اللغة[1]

جيل دولوز
ترجمة: **د. أحمد الطريبق**

(1) دولوز جيل: اللاهوت السلبي - الإله فيما وراء اللغة" محاضرة ملقاة في 27/01/1981 La Théologie négative: Dieu excédant le langage. محاضرة ضمن سلسلة من المحاضرات ألقاها جيل دولوز حول اسبينوزا.

يعرض جيل دولوز في هذه المحاضرة لمسألة شائكة، تتعلق بالحوار الذي دار بين اسبينوزا ورجال اللاهوت؛ ذلك الحوار الذي انتهى باضطهاده والتنكيل به. والواقع أن الحضارة العربية الإسلامية كانت قد عرفت هذا الحوار، الذي أثمر كتبا كثيرة ومواقف سياسية وتاريخية. بالطبع، نشير هنا إلى علم الكلام الذي خاض في الذات الإلهية ومن ثمة انبثاق مصطلحات وتيارات: المجسمة والمجسدة...إلخ. ونعرف ما كان من هذه المناظرات والدماء التي سالت بسببها، وموقف السلطة منها، أحيانا بالتبني، وأحيانا أخرى بالاضطهاد. نشير هنا إلى ما يعرف، بمحنة «خلق القرآن» خلال الحكم العباسي. هذا الحوار طال أيضا المجتمعات الغربية.

وقد كان موضوع هذا الحوار العتيق هو الذات الإلهية وصفاته، أو بالأحرى كيف يجب علينا أن نفهم أو نتكلم في شأن الذات الإلهية. كان اسبينوزا يحاول أن يبين لعلماء اللاهوت أن هذا اللغط الذي رافق هذا الحوار، واللبس الذي صاحب الحديث عن الإله عندهم، إنما يعود إلى سوء فهم مجال اللغة، وما يرتبط به من الوصف. هل نستطيع الحديث عن الإله وبأية لغة؟ هل نستطيع ذلك حتى لو استعملنا لغة سالبة أو لاهوتا سالبا؟ ذلك ما نجد الجواب عنه في هذه المحاضرة للفيلسوف الفرنسي جيل دولوز **Gilles Deleuze** عن اسبينوزا **Spinoza** وحواره مع رجال اللاهوت. وقد ترجمناها هنا.

الإله فيما وراء[1] اللغة[2] (Dieu excédant le langage)[3]

حسنا، فلأقل إن الإله **Dieu** هو أكبر فلاح، أو أقول هو أكبر محارب، أو أقول إن عدالته عدالة الحرث وقسمة الأراضي، وفي حالة أخرى، أقول إن عدالته ستكون عدالة الأرض المسيجة، وعدالته ستكون عدالة المحارب، وفي حالة أخرى أقول إن له سيفا، وفي حالة أخرى سأقول إنه الإله ومحراثه، ثم أقول في المقابل، لست سوى سنبلة متواضعة من القمح. وفي حالة أخرى، سأقول أنا الإله المحارب.

حسنا، ما الذي يعنيه القول: الإله هو المحارب الأكبر و هو الفلاح الأكبر؟ طبعا، إن ما أقول لا ينبغي أن يفهم بالمعنى الحرفي للكلمات، فأنا لست غبيا لهذا الحد: حين أقول أنا الفلاح وأنا المحارب؛ ما الذي أعنيه حينما أقول سيف الإله؟ بطبيعة الحال ليس لله سيف، فما معنى هذا الذي أقوله؟ وما هذا الهذيان الذي أعبر عنه؟ بما أنني أعرف جيدا أن هذا غير حقيقي.

ومن جهة أخرى، فأنا أزعم أن ذلك حقيقي؛ أي أزعم أن للإله سيفا أعظما. أعظم! ما الذي يعنيه هذا؟ وإذا كنت الراعي الذي يقود قطيعه في الجبل، فأقول إن الإله نفسه هو الجبل الأعظم (ينظر في هذا إلى نصوص الإنجيل القديم) وأن الإله هو جبل الجبال. حسنا، لكنني أقصد أنه الجبل الأعظم، ما معنى هذا؟ الأعظم! كما كان يقول اسبينوزا، من الناحية الروحية، لو كان من الممكن للمثلث أن يتكلم لقال إن الإله هو المثلث الأعظم **éminemment**.

أعظم مثلث! ما معنى هذا؟ هنا أذكر أن اسبينوزا له مقاصد أخرى في منظوره؛ فهو لا يقول هذا من أجل الضحك، إنه يتوجه طبعا إلى أشخاص في عصره يفهمون جيدا ماذا كان يقصد بكلامه. ذلك أن هذا السؤال كان يطرح من جهة نظرية المعنى في العصر الوسيط، فقد كان هذا من الأسئلة الأساسية ومن سيميولوجيا **sémiologie** العصر الوسيط، حيث السؤال: كيف يمكن لنا أن نتحدث عن الإله؟ وماذا يمكن أن نقول عنه؟ فيبدو هنا أن كل اللغة ينتفي كلما تعلق الأمر بمقاربة الإله، فليس هناك قول عن الإله، إنه يتجاوز كل ما يمكن أن نقول عنه.

1- تعني كلمة excéder التجاوز والعلو على الشيء، ولما أن الأمر يتعلق بالتجاوز والعلو في اللغة، فإن الكلمة هنا تدل على معنى ما هو من قبيل ما وراء اللغة métalangage وعلى ذلك ترجمنا اللفظ excéder ب: ما وراء، وهو ما يطابق المعنى تماما في نص جيل دولوز، حيث كل محمول أو وصف للإله هو من قبيل ما وراء اللغة، خصوصا لدى اللاهوت السلبي.

2- دولوز جيل: اللاهوت السلبي - الإله فيما وراء اللغة" محاضرة ملقاة في 1981/01/27 La Théologie négative: Dieu excédant le langage. محاضرة ضمن سلسلة من المحاضرات ألقاها جيل دولوز حول اسبينوزا.

3- رابط محاضرة دولوز "الإله فيما وراء اللغة": https://www.youtube.com/watch?v=6FILOSuGIsw

إذن فأنا بطريقة ما، لا أستطيع أن أقول عن الإله إلا شيئا واحدا، وهو ما ليس يكون، فأستطيع أن أقول إنه ليس بمربع، وليس يكون كذا ولا كذا ...إلخ. إنه ليس بأي شيء! هذا هو ما سيسمى باللاهوت السلبي[4] **Théologie négative**، فلا أستطيع أن أتحدث عن الإله إلا على نموذج النفي **négation**. هل أستطيع أن أقول إن الله موجود؟ حتى في حدود هذا، سأقول، وكم ذهب الصوفيون بعيدا في هذا المشوار، حتى في حدود هذا الخط، سأقول إن الإله غير موجود. لماذا أقول الإله غير موجود؟ لأنه يتجاوز حد الوجود، تماما كما يتجاوز صورة المثلث، والوجود هو محمول[5] **prédicat** أدنى منه وغير قابل للمقارنة به. إذن وبطريقة حرفية، الإله غير موجود. فإذا قلت إن الإله موجود، سأقول نعم إنه موجود لكن على نحو أعظم.

أعظم! يعني حرفيا، بمعنى أعلى وبمعنى آخر وبمعنى أضخم. لكن، في هذه الحالة، فهل ما قلته قبل قليل عن اللاهوت السلبي حقيقي، حيث إنه لا يتكلم عن الإله إلا عبر النفي؟ يقول لنا هذا اللاهوت ما لا يكونه الإله، فلا يستطيع قول شيء آخر إلا ما لا يكونه الإله، حتى أنني لا أستطيع أن أقول إن الله جميل، فهو أعظم من الجمال. حسنا، غير أن هذا ليس سوى المظهر الأولي للاهوت السلبي، لأنني سأقول عبر اللاهوت السلبي ما لا يكونه الإله.

طيب، لكن ما لا يكونه الإله هو في الوقت نفسه ما يكونه، إنه ذاك الذي لا يكونه. كيف ذلك؟ الجواب نعم، إنه يكونه على نحو أعظم، فما لا يكونه فهو يكونه على نحو أعظم؛ أي ما لا يكونه بمعنى، فهو يكونه على نحو معنى أعظم؛ أي بالمعنى الأعلى من المعنى الذي بحسبه لا يكونه. لا يوجد الإله معناه أنه يوجد، لكن يوجد تحديدا على النحو الأعظم، أي بمعنى آخر غير كل الموجودات التي تعرض علي في العالم، أي بمعنى أعظم. الإله ليس جميلا، معناه أنه جميل، لكن بمعنى أعظم، حيث كل الجمال الذي على الأرض لا يشكل بالنسبة إليه إلا فكرة تافهة، بما أنه هو الجميل بشكل غير محدود، وبما أننا لا نعرف عن الجميل إلا الأشياء الجميلة طبقا للنهائية [6] **Finitude**، هل تتابعونني؟

إذن ها هو اللاهوت السلبي وقد ابتكر لغة حيث النفي سلب، لأن الإقرار هنا لهو إقرار أعظم؛ من ثمة، فإن رموز وكلمات هذه اللغة لها أساسا عدة معاني، وهنا أيضا نعود إلى المألوف اليومي؛ كما ترون، فكل هذه الأبعاد للمعاني لها وجهان، وجه الحياة اليومية ووجه الظرف الاستثنائي؛ أي حينما يقدم اللاهوت السلبي الظرف الاستثنائي من وجهة النظر هذه، لكن في حياتنا اليومية لا ننفك عن ذلك، فللكلمات معاني متعددة

4- تيار مذهبي عقدي اشتغل على مبدأ تعريف الإله بالسلب والنفي تفاديا لمعادلته بالإنسان أو بأي موجود، فيقول ليس الإله كذا ... تفاديا للمقارنة والتشبيه أو التجسيد. وقد عرف عند العرب هذا التيار مع المعتزلة ومعارضيهم: ليس كمثله شيء.

5- المحمول لفظ من مجال المنطق الصوري، وهو ما نحمله في الذهن عن الموضوع، مثلا: سقراط إنسان، فسقراط هنا في مقام الموضوع وإنسان في مقام المحمول. وهذا ما نحمله في الذهن حسب المناطقة في مجال منطق المحمول، أما عند البيانيين يسمى المسند وعند النحاة الخبر. أما الخبر في المنطق القضوي، فيسمى القضية. وفي هذا النص، فإن كل محمول عن كل موضوع لا يرقى أن يكون محمول عن الإله الذي لا محمول عنه، أنه فوق كل محمول.

6- مفهوم حضر بقوة في الفلسفة ويعني حتمية الموت والفناء؛ فالنهائية خاصية لكل موجود، وهي عكس اللانهائية التي هي خاصية حصرية للإله.

ومعاني كثيرة، إذ أقضي كل وقتي أقول، نعم أتفهمك، لكن بأي معنى تقول هذا؟ فلنعود للاهوت السلبي، فهو التضخيم لهذا الظرف. أترون، فلدي ثلاثة ظروف يومية، مع ثلاث حالات من التضخيم، لا أقول إن الأمر موجود لدى اسبينوزا بشكل نسقي، لكني أقول إن كل هذا موجود لديه.

بالفعل، نعود إذن إلى هذه الصفة الثالثة، فأقول بصددها، ليس هناك أي حدود لدى اللاهوت السلبي، وهذا قد يلهم أجمل القصائد، فيقال الإله جبل والإله عطر والإله سيف؛ يعني ضمنيا، هو ليس بعطر وليس بسيف وليس بجبل؛ أي أنه يعني ضمنيا ما لا يكونه، فهو يكونه على النحو الأعظم؛ أي بمعنى آخر مختلف عن المعنى العادي والمعنى المتداول، الإله جبل، لكنه جبل أعظم، أي في كل جبال العالم، حتى جبال الهيمالايا، لا تعطينا عنه إلا فكرة مشتبهة وخاطئة، جبل لانهائي، إنه جبل لانهائي، وسيف لانهائي ... إلخ.

إذن لغة اللاهوت السلبي هذه، تعمل على الواقع العادي اليومي، حيث للكلمات عدة معان؛ فهي ببساطة تدفع الأشياء إلى الحد الأقصى؛ وما هو هذا الحد الأقصى؟ إنه وجود المعنى اللانهائي **infini** والمعنى النهائي **fini** في حالة اللاهوت، حيث الأشياء نسبيا جميلة والإله الجميل بشكل لامحدود، والأشياء لها درجة محدودة من الكمال والإله الكامل مطلقا.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : 54 99 77 537 212+
الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com